الصفات والخصائص التي أبرزت الإمام المجاهد يوسف بن تاشفـــين المرابطيّ

تأليف

محمد بن موسى الشريف

الصفات والخصائص التي أبرزت الإمام

المجاهـــد يوسف بن تاشفـــين المرابطيّ

الطبعة الأولى

١٤٣١هـــ - ٢٠١٠م





جدة / هاتف: ٠٢/٦٨١٠٥٧٧
/ فاكس: ٠٢/٦٨١٠٥٧٨
الرياض / هاتف: ٠١/٢٤٨١٧٠٥
/ فاكس: ٠١/٢٤٨١٩٠٥
التوزيع / ٠٥٤٤٨١٩٠٥ - ٠٥٤٤٠٤٦٠٦٢



المكتبات: حي السلامة
هاتف - فاكس: ٦٨٤٤٢٠٩
حي الثغر - شارع باخشب
هاتف: ٦٨١٥٠٢٧ - فاكس: ٦٨١٠٥٧٨



البريد الإلكتروني
alandalos1@gawab.com
ص.ب: ٤١٣٤٠ جدة ٢١٥٤١


بسم الله الرحمن الرحيم

قال فيه محمد بن سوار الأشبونيّ:

اسمع أمير المؤمنين وناصر الــ	دين الذي بنفوســنا نفديــه
جوزيت خيراً عن رعيتك التي	لم ترض فيها غير ما يرضــيه
أما مساعيك الكــرام فإنهــا	خرجت عن التكييف والتشبيه
في كل عام غــزوة مــبرورة	تُردي عديد الــروم أو تفنيــه
تصل الجهاد إلى الجهاد موفقاً	حَكَمَ القضاء بكل ما تقضــيه
متواضــعاً لله تظهــر دينــه	في كل ما تبديــه أو تخفيــه
ولقد ملكت بحقك الدنيا وكم	ملك الملوكُ الأمــرَ بالتمويــه

مقدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

ـــ فإن هنالك رجالاً عظماء في تاريخنا الإسلامي يصح أن نقول عنهم إنهم غيروا التاريخ وكانوا مفاصل رئيسة فيه، ومن هؤلاء بلا شك ولا ريب المجاهد العظيم، يوسف بن تاشفين الصنهاجي المرابطي -رحمه الله تعالى ورضيِ عنه- كِفاءِ ما جاهد وقدّم للمسلمين وقد كان ذا صفاتٍ وشمائلَ وخصائصَ مكنته من تحقيق هذا الذي حققه، والوقوف عليها من أهم المهمات التي يجب أن يطلع عليها الجيل الحالي لعل واحداً من أفراده أن يستفيد منها ويسد بها ثغرة على المسلمين أو يرقع بها خرقاً في الثوب الإسلاميّ الممزق.

فماذا يمكن لليَراع أن يَخُط عن أعظم ملوك المسلمين في عصره، الذي أسس مملكة إسلامية من قرابةٍ وسط الجزائر حتى مراكش، ومن الأندلس شمالاً إلى غانا جنوباً، فكانت من أعظم ممالك العصر.

وماذا يمكن للقلم أن يكتب عن منقذ المسلمين في الأندلس، ومَن أخر سقوطهم أربعة قرون وبضع سنين، ودحر الكافرين، وأعز الله تعالى به الدين، وذلك في معركة الزَلاّقة الشهيرة سنة ٤٧٩هــ/١٠٨٦م.

ومِن ثَمّ وحد الأندلس، وجمع دول الطوائف المتفرقة المتناحرة تحت راية دولته المنيفة.

وكيف يمكنٍ للمرء أن يكافئ -في بُحَيْث كهذا- من أقام للمغرب صرحاً منيفاً من الوَحدة المذهبية تحت لواء فقه الإمام مالك -رحمه الله تعالى- فأراح البلاد والعباد من فتن الخلاف بين المذاهب وتناحر المتعصبين التي طالما عانى منها الشرق ونكب.

لكن لابد مما ليس منه بد، وسأحاول في هذا البحث -إن شاء الله تعالى- أن أكتب شيئاً عن شمائله وصفاته وخصائصه التي مكنته من تحقيق هذا الذي حققه، وسآتي عليها بإيجاز يناسب طبيعة البحوث[1]، ويكون قدر الإمكان شافياً للنفوس، التي تتطلع إلى معرفة قدر هذا البطل العظيم، وكيفية تحقيقه تلك المنجزات الجليلة.

والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

mhmalshareef@gmail.com

www.altareekh.com

....

(١) قُدم هذا البحث إلى مؤتمر "المذهب المالكي وتجربة الوحدة المرابطية لدول الغرب الإسلامي الكبير" الذي انعقد بمدينة العيون المحروسة بتاريخ ٧-١٤٣١/٤/٩هـ، ٢٣-٢٥ مارس/٢٠١٠م.

تمهيـــــد

إن أحوال المسلمين في زمن الإمام المجاهد يوسف بن تاشفين -في القرن الخامس الهجري- كانت حرجة إلى الغاية التي أورثتهم ما كانوا عليه آنذاك من الضعف والخَوَر؛ فالخلافة العباسية كانت ضعيفة، والدولة الباطنية الميمونية القداحية التي سميت زوراً بالدولة الفاطميـــة كانت مستوليـــة على مصر وأجزاء من بلاد الشام والحجاز، والمغرب كان بحاجة إلى قيادة تجمع ما تفرق من شتاته، والمشرق ليس بأحسن حالاً منه، وختم القرن بنـــزول الصليبيين على السواحل الشامية، وكان الأمر مهيئاً لظهور بطل مجاهد يحمل الراية وينصر المسلمين فكان هذا البطل هو يوسف بن تاشفين.

وأرى -والله تعالى أعلم- أن هذا البطل العظيم لم يُوف حَقَّه من الاشتهار وذيوع السيرة، فهذا صلاح الدين وقد كان بعده بنصف قرن تقريباً قد ملأت سيرته الدنيا إلى يوم الناس هذا، لكن يوسف ابن تاشفين -الذي أرى أنه لا يبعد سيرة وجهاداً عن صلاح الدين[1]، وكلاهما اسمه يوسف، وكلاهما قيضه الله منقذاً للمسلمين- لا يكاد يعرفه إلا القليل، وهذا أمر معروف عن أعلام

---

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر الدُويني التكريتي الأيوبي السلطان الكبير الذي فتح الله على يده بيت المقدس وطهّـــر بـــلاد الشـــام -إلا عكا- من الصليبيين. وكان له معهم الوقائع المحمودة. توفي رحمه الله تعالى سنة ٥٨٩. انظر ترجمته في "سير أعلام النبلاء": ٢١/٢٧٨ وما بعدها.

المغاربة منذ قديم الزمان، واشتكى منه كثيرون، وهو أمر واقع إلى يوم الناس هذا، ولولا أن بعض القنوات الفضائية في المغرب العربي الكبير تنقل بعضٍ صور الحياة في المغرب اليوم لاستعجم حاله على المشارقة تماماً، ولأصبح الناس منه في عِماية تامة.

ويشبه هذا ما اشتكى منه الإمام الشوكاني(١) من أن أعلام اليمن العظام لا يكادون يُعرفون، وضرب مثلاً على ذلك بإبراهيم ابن الوزير(٢)، وصالح المَقْبَلي، والحسن الجلال، والأمير الصنعاني، وعلل ذلك بوقوع اليمن في أطراف الدول الإسلامية، فإذا كان اليمن في أطراف الدولة فماذا نقول عن مغربنا الأقصى إذن؟!

هذا وإن حصر مناقب عظماء الرجال وكتابتها وبثها لهو أمر من أجل الأعمال وأحسنها، خاصة في هذا الزمان الذي قَلّ فيه العظماء، واحتاج الناس إلى سير قدوات يقتدون بها في أخلاقهم وسلوكهم في خضم بحر هائج متلاطم من السخافات الإعلامية

....

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكانيّ: فقيه مجتهد؛ من كبار علماء اليمن، من أهل صنعاء. ولد بهجرة شَوْكان من بلاد خولان باليمن سنة ١١٧٣، ونشأ في صنعاء. وولي قضاءها سنة ١٢٢٩ ومات حاكماً بها. توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٥٠ بعد أن ترك ١١٤ مؤلفاً. انظر: "الأعلام": ٢/٢٩٨.

(٢) محمد بن إبراهيم بن علي، الإمام الكبير المجتهد المطلق المعروف بابن الوزير. ولد سنة ٧٧٥ باليمن. قرأ على كبار مشايخ بلاده ومكة، وتبحر في جميع العلوم وفاق الأقران. له عدد من المصنفات النافعة. توفي رحمه الله تعالى سنة ٨٤٠. انظر: "البدر الطالع": ١/٨١-٩٣.

يظهر فيها كل تافه وتافهة اتخذهما كثير من الناس قدوة لهم في هذا الزمان الصعب.

ولهذا فإن نشر سير ومناقب العظماء ممن قد تخفى مناقبهم وسر عظمتهم على كثير من الناس لهو أمر محمود مهم، وأزعم أن البطل المجاهد يوسف بن تاشفين هو من جملة هؤلاء الذين ضحوا وقدموا، وبذلوا وأعطوا، وهان عليهم بذل أرواحهم في سبيل نصرة هذا الدين، ثم لم يكلف أبناء الزمان أنفسهم الوقوف على أعمالهم، واستقصاء سيرهم وأخبارهم، وهذا هو أقل درجات الوفاء تجاههم لكن لعمر الحق إن أهل هذا الزمان قد قصروا تقصيراً بيناً في تحصيل هذا الأمر، وتراخوا وضعفوا حتى وقع المحذور ألا وهو عدم وقوف أكثر الناس على أخبار العظماء وتفاصيل حياتهم التي هي في غاية الأهمية لكل من يريد تجديداً للدين، أو يروم رفعة للأمة وسيادة لها وتمكيناً؛ لأن حياة أولئك تجربة فاخرة، وخبرة ثرية تحتاجها الأجيال في طريقها للنصر والتمكين، وقصة كل واحد من هؤلاء العظماء مشاعل هداية ومعالم على الطريق لا يمكن إغفالها ولا تجاوزها.

والجيل اليوم بحاجة ماسة إلى معرفة عظمائه وكبرائه حتى يقتدي بهم ويأتسي، وإلا فإنه سينصب لنفسه قدوات قد لا يكونون صالحين للاقتداء أو لا يكونون مسلمين؛ كما نشاهد اليوم ملايين المسلمين وهم يقتدون بلاعبي الكرة والمغنين والممثلين وغيرهم من تلك الطبقات، وذلك لأن مناهج التربية والتعليم ووسائل الإعلام في العالم الإسلام لم تظهر على وجه الكفاية سير العظماء الذين ينبغي أن يُقتدى بهم، أو أنها لم تظهرها على الإطلاق.

والأمر العجيب الذي يكاد يمزقني أني أرى عناية الغرب والشرق بتراجم عظمائهم تبلغ الغاية، ويبالغ فيها مبالغة معروفة، فأين الثرى من الثريا يا عباد الله؟! وأين اللآلي المكنونة في صدفاتها من الخرز المعروض المبهرج؟!

ولعل الجهود الحديثة في زمننا هذا في البحث والتنقيب عن سير العظماء وإقامة المؤتمرات لهم أن تثمر شيئاً في هذا الباب، وتسد ثغرة انفتحت على المسلمين منذ زمن طويل؛ ألا وهي جهلهم بسير عظمائهم من علماء وقادة مجاهدين، ودعاة عاملين.

والبطل العظيم يوسف بن تاشفين هو واحد من زمرة العظماء المنسيين، وممن وقع عليهم الحَيْف المبين، وإلا فدلوني على أعطرَ سيرة منه، أو أجل قدراً من ملوك الزمن الأوسط، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولعل سيرة ابن تاشفين أُهملت عمداً وطُمست بعض تفصيلاتها وشُوه بعض جوانبها من قِبَل الموحدين الذين جاؤوا بعد المرابطين وكانوا على النقيض منهم في بعض الأمور.

واليوم تحيا سيرته شيئاً فشيئاً بفضل الله تعالى، فهناك مدرسة يوسف بن تاشفين المتوسطة بالرياض، وهناك ثانوية تأهيلية باسمه في مراكش، وهناك مدرسة باسمه في شفشاون، وهناك روضة للأطفال باسمه في القنيطرة مركز عرباوة، وهناك ثانوية باسمه في فاس، وهناك ابتدائية باسمه في قصيبا، وهناك ثانوية باسمه في مولاي بوسلهام بالمغرب، وفي أغادير مدرسة ثانوية باسمه، وفي بُودربالة ثانوية باسمه؛

وهناك ملعب باسمه في مراكش، وهناك شارع باسمه في الناظور في المغرب.

وهناك سَدٌّ باسمه في المغرب في وادي ماسة، وهذا كله -إن شاء الله تعالى- يصب في إحياء سيرة هذا المجاهد البطل رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ــ وقد عملت قناة العربية "فيلماً" وثائقياً عنه بعنوان: "صفحات منسية: يوسف بن تاشفين"، وهذه خطوة حسنة في التعريف به.

ــ وأرجو أن يُسهم هذا المؤتمر في نشر سيرة هذا المجاهد الهُمام، وتعريف سائر المسلمين بسيرته العطرة.

ترجمــــة موجـــزة لابن تاشفـــين

هو أبو يعقوبَ يوسف بن تاشفين بن إبراهيم الصنهاجي الحميري اللمتوني، أمير المسلمين، وأمير المرابطين.

ـــ ولد بصحراء موريتانيا سنة ٤٠٠ تقريباً، وقيل بعد ذلك.

ـــ كان الفقيه المجاهد عبدالله بن ياسين قد جمع حوله جماعة من الناس، وجعل همها الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكانوا يتلثمون ولا يكشفون وجوههم فلقبوا بالملثمين، وقد ساعده في الجهاد أمير من أمراء البربر يُدعى يحيى بن عمر اللمتوني، فلما قتل تولى أخوه أبوبكر بن عمر مكانه، الذي شُغِل بحرب الوثنيين في الصحراء فولّى ابن عمه يوسف بن تاشفين مكانه حتى يعود، فلما عاد وجد أن يوسف قد التفّ الناس حوله لصفات فيه جليلة فنـــزل له عن الرئاسة وخلع نفسه منها، وحكم يوسف ابن تاشفين المغرب أكثر من خمسين سنة.

ـــ أنشأ البطل المجاهد يوسف مدينة مَرّاكشُ وجعلها عاصمة ملكة سنة ٤٦٥، وقيل إن الذي بدأ إنشاءها ابن عمه الأمير أبوبكر بن عمر اللمتوني وجاء يوسف بعده فأتم بناءها.

وحد المغرب الأوسط والأقصى في دولة واحدة من الجزائر إلى طنجة إلى مَرّاكُش إلى ما يعرف اليوم بدولة مالي، وصار المغرب

دولة سنية بعد أن تنازعه أصحاب الأهواء والمذاهب الباطلة والعقائد الفاسدة.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجتمع فيها أكثر المغرب الأوسط والأقصى في دولة واحدة.

ـ استنجد به أمراء الطوائف في الأندلس ضد النصارى فأنجدهم وانتصر على النصارى في معركة عظيمة هي الزلاقة سنة ٤٧٩/ ١٠٨٧م.

ـ وبعد ذلك جمع الأندلس والمغرب في دولة واحدة ضخمة عاصمتها مراكش.

ـ ولّى ابنه علياً ولاية العهد من بعده، وكان لابنه أيادٍ بيضاء في الجهاد.

ـ توفي البطل المجاهد يوسف بن تاشفين سنة ٥٠٠هـ ودفن في مراكش رحمه الله تعالى، وقبره فيها اليوم معروف.

وقَلّ من ملوك الإسلام من عُمِّر مثل ما عُمِّر البطل المجاهد يوسف بن تاشفين(١).

وإليكم صفته الخُلُقية والخَلْقية بإيجاز:

أسمر اللون نقيّه، معتدل القامة نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفرة تبلغ

(١) وانظر "تاريخ الإسلام" للحافظ الذهبي: وفيات سنة ٥٠٠.

شحمة أذنيه، مقرون الحاجبين، جَعْد الشعر، وكان رحمه الله بطلاً نجداً شجاعاً حازماً مهاباً ضابطاً لملكه، متفقداً الموالي من رعيته، حافظاً لبلاده وثغوره، مواظباً على الجهاد، مؤيداً منصوراً، جواداً كريماً سخياً، زاهداً في الدنيا متورعاً عادلاً صالحاً، متقشفاً على ما فتح الله عليه من الدنيا، لباسه الصوف، لم يلبس قط غيره، وأكله الشعير ولحوم الإبل وألبانها، مقتصراً على ذلك، لم ينتقل منه مدة عمره إلى أن توفي رحمه الله تعالى على ما منحه الله من سعة الملك في الدنيا وخوّله منها، فإنه خُطِب له بالأندلس والمغرب على ألف وتسعمائة منبر".(١)

....

(١)انظر كتاب "ذكريات مشاهير رجال المغرب" ٣/١٤٧٧.

الصفات والخصائص التي أبرزت الإمام المجاهد يوسف بن تاشفين

هناك مجموعة من الصفات والخصائص التي أبرزت هذا البطل المجاهد، ويسّرت له تحقيق ما حققه من أعمال جليلة، فمنها:

أولاً: حسن الصلة بالله تعالى:

إن حسن الصلة بالله -تعالى- حجر الزاوية في كل الأعمال والأقوال، وهي اللبنة العظمى التي إن اختلت أو ضعفت سقط البناء، وانهدت الأركان، فالله -تعالى- يقرب البعيد، ويسهل الصعب، ويفتح الأبواب، ويؤتي العبد سؤله، وينيله مراده، وذلك إن صحت النية من العبد وحَسُنَ الإقبال على الله -تعالى- وإلا فيا ضيعة الأعمار، وياخيبة الآمال.

وأزعم -والله تعالى أعلم- أن هذا المجاهد البطل قد حاز من القرب من مولاه شيئاً عظيماً، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحداً، وقد قال فيه الفقيه عبدالله بن محمد المعروف بابن العربي، وهو والد الفقيه أبي بكر بن العربيّ[١] -رحمهما الله تعالى-:

"وقد خصه الله بفضائل منها الدين المتين... وهو ممن يقسم بالسوية، ويعدل في الرعية" ثم ذكر أن بلاده -على سعتها- تخلو من

---

(١) أبوبكر محمد بن عبدالله بن محمد المعافريّ الإشبيلي. إمام، علامة، حافظ، متبحر. ولد سنة ٤٦٨ بإشبيلية، ونشأ بها، ثم ارتحل إلى مصر والحجاز والعراق. كان حسن المعاشرة، وقد تولّى القضاء في إشبيلية وكان صارماً فيه. له تآليف عديدة. توفي سنة ٥٤٣،ودفن في فاس.انظر"الديباج المذهّب": ٢/٢٥٢-٢٥٦.

الضرائب وأن النقود الذهبية والفضية التي يَسُكّها آمنة من الغش والخلط بغيرها.

وقد ذكر ابن الخطيب -في "الإحاطة"- أنه "كان درهمه فضة، وديناره تبراً -ذهباً- محضاً، في إحدى صفحتيه لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وفي الدائر: J I H G F E D C B A @ ? M K L[1] وفي الصفحة الأخرى: الإمام عبدالله أمير المؤمنين...".

وهذا الحشد من العبارات الإيمانية الواردة في نقود هذا البطل المجاهد دالٌّ على خبيئة نفسه، والله أعلم....

ويصف أحد المؤرخين المرابطين زمن يوسف بن تاشفين ومن بعده فيقول إنهم كانوا "أهل ديانة ونية صادقة خالصة، وصحة مذهب، ملكوا بالأندلس من بلاد الفرنج إلى البحر الغربي المحيط، ومن مدينة بجاية من بلاد العُدْوة إلى جبال الذهب من بلاد السودان[2]، لم يَجْرِ في عملهم طول أيامهم رَسْمٌ[3] مكروه: معونة ولا خراج في بادية أو حاضرة، وخُطب لهم على أزيدَ من ألفي

....

(١) سورة آل عمران: آية ٨٥.

(٢) أي بلاد غانة.

(٣) أي ضريبة.

منبر، وكانت أيامهم دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن... كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم، ولم يكن في بلد من أعمالهم خراج ولا معونة ولا تقسيط، ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر، وكثرت الخيرات في دولتهم، وعمرت البلاد، ووقعت الغِبطة.

ولم يكن في أيامهم نفاق ولا قُطاع طريق، ولا من يقوم عليهم، وأحبهم الناس"[١].

ـــ ومن ورعه وحسن نظره في اجتماع المسلمين أنه لم يرد الاستقلال بالملك بل ربط نفسه بالخلافة العباسية، فأرسل إلى الخليفة العباسي المقتدي يطلب منه توليته على ما بيده من البلاد ليكون أميراً شرعياً، وفي ذلك قال الإمام السيوطي:

"وفي سنة تسع وسبعين -أي وأربعمائة- أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سَبْتة ومَرّاكُش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه وأن يقلده ما بيده من البلاد فبعث إليه بالخِلَع[٢] والأعلام والتقليد، ولقبه بأمير المسلمين، ففرح بذلك وسُر به فقهاء المغرب"[٣].

(١) "التاريخ الأندلسي": ٤٤٦ نقلاً عن "روض القرطاس" لابن أبي زرع.

(٢) أي ملابس الولاية.

(٣) "تاريخ الخلفاء".

وكان أول من لُقب بأمير المسلمين من ملوك وسلاطين الإسلام كافة.

ـــ وكان في المعارك يتعرض للموت، ويحث الجنود على الجهاد، ويصرح بأن نيته في العبور إلى الأندلس هو الجهاد لا غير، وعَفّ عن الغنائم العظيمة.[١]

وفي معركة الزلاقة المشهورة التي نصر الله تعالى فيها المسلمين بجهاد ابن تاشفين ومن معه نُقل عنه أن كان "على فرس أنثى، يمر بين ساقات المسلمين وصفوفهم يحرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر، فقاتل الناس ذلك اليوم قتال مَن يطلب الشهادة ويرغب في الموت"[٢].

ـــ ومن الدلائل على حسن صلته بالله تعالى أنه "كان إذا وعظه أحدهم خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبه لها، وظهر ذلك عليه"[٣].

ـــ وقال فيه صاحب الحلل الموشية:

"كان من أهل الخير والاقتداء".

وقال في موضع آخر:

---

(١) "فقه التمكين عند دولة المرابطين" ١٢٦، ١٢٧.

(٢) "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": ٢/٤٦.

(٣) "الكامل": حوادث سنة ٥٠٠.

"كان رجلاً فاضلاً، خيراً، زكياً... زاهداً... ينيب إلى الخير والصلاح، كثير الخوف من الله عزوجل"(١).

ـــ وكان عادلاً حتى وصفه الإمام الغزالي(٢) بأنه "تناطقت الألسن بعدله"(٣).

وقال الإمام الذهبي(٤):

"كان يحب العفو والصفح، وفيه خير وعدل"(٥).

....

(١) "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية": ٨٢.

(٢) الشيخ الإمام البحر، حجة الإسلام، زين الدين أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الطُّوسيّ الشافعيّ الغزاليّ، صاحب التصانيف والذكاء المفرط. تفقه ببلده ثم تحول إلى نيسابور فلازم إمام الحرمين فبرع في الفقه ومهر في الكلام والجدل، وشرع في التنصيف، وعظم جاه الرجل، ثم رفض الرئاسة وتزهّد وحج، وانعزل عن الناس مدةً، وكان خاتمة أمره إقباله على طلب الحديث ومجالسة أهله. توفي سنة خمس وخمسمائة بطوس، رحمه الله تعالى. انظر: "سير أعلام النبلاء": ١٩/٣٢٢-٣٤٦.

(٣) "فقه التمكين عند دولة المرابطين": ١١٢.

(٤) الإمام الحافظ الكبير شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، محدث عصره، إمام الوجود حفظاً، وذهب العصر معنى ولفظاً، وشيخ الجرح والتعديل، ولد سنة ٦٧٣هـ، وطلب الحديث وارتحل وأخذ عن شيوخ كثيرين، وسمع منه الجم الغفير، وألف المصنفات الكثيرة النافعة، وتوفي سنة ٧٤٨هـ، رحمه الله تعالى. انظر: "طبقات الشافعية الكبرى":٩/١٠٠-١٢٣.

(٥) "تاريخ الإسلام": وفيات سنة ٥٠٠.

ـــ وقد كان مجاب الدعوة؛ فقد جاز -رحمه الله تعالى- إلى الأندلس وقد ناهز الثمانين، ولما ركب البحر فإذا به كثير الاضطراب عظيم الموج، فدعا ربه تعالى قائلاً:

"اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا خيرة للمسلمين فسهل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه" فسكن البحر وهدأ[١]، الله أكبر.

وقد كان عمل لدولته الأعلام التي عليها الآيات القرآنية[٢].

وفي نصائحه لولاته وعماله ما يدل على خوفه من الله تعالى،فمن ذلك ما نصح به واليه المسمى عبدالله بن فاطمة فقال له:

"ارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه المضطهد بابك، ووطِّن للرعية -أحاطها الله- أكنافك، وابذل لها إنصافك، والحرجَ من كل ما يحيف عليها ويؤذيها..."[٣].

ـــ ومن دينه أنه لما دخل مدينة فاس أمر ببناءِ المساجد في جميع أحيائها وشوارعها، وأي زقاقٍ لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله، وأجبرهم على بناء مسجد فيه.[٤]

(١) المصدر السابق: ١١٩.

(٢) "في تاريخ المغرب والأندلس": ٣٠٥.

(٣) "فقه التمكين": ١٠٠٦.

(٤) "ذكريات مشاهير رجال المغرب": ٣/١٤٥٥.

ــ ومن دينه أنه كان إذا دخل عليه مَن طَوّل ثيابه وجَرّها أعرض عنه، فإن كان ذا ولاية عزله.[1]

ــ "وكان حسن الأخلاق، متواضعاً، كثير الحياء، جامعاً لخصال الخير"[2].

ومن هذه النصوص كلها يتضح بجلاء أنه قد اجتمعت خصال من الخير في هذا الرجل -نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله تعالى- جعلت صلته بالله تعالى حسنة جليلة مكنته من عمل أشياء عظيمة.

....

(١) "تاريخ الإسلام": حوادث سنة ٥٠٠.

(٢) "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": ٢/٦٠.

ثانياً: حب الجهاد:

كان يوسف بن تاشفين على سَنَن قومه المرابطين، محباً للجهاد، مؤثراً له على كل شيء، جاهد في بداية أمره أهل العقائد الفاسدة في المغرب من أهل "برغواطة" وغيرهم وأهل الظلم والفجور من زناتة(١)، واشتغل بعد ذلك بجهاد النصارى أحسن الجهاد وأفضله، وانتصر عليهم في مواقع أعظمها "الزلاقة" التي وقعت سنة ٤٧٩هـ، وبها وبغيرها من المعارك ثبت ملك المسلمين في الأندلس أربعة قرون أخرى ونيف من السنين.

وقد جاز إلى الأندلس ثلاث مرات من أجل الجهاد فرحمه الله تعالى ورضي عنه.

ووحد بالجهاد المغرب من الجزائر إلى طنجة، وجمع إليه الأندلس فكانت دولة فتية عظيمة، وهي دولة المرابطين وعاصمتها مَرّاكُش فكانوا كما وُصفوا: "أمة جديدة الإسلام، شديدة الاعتزام، مظهرة للقيام بالحق، مجاهدة مَن زاغ عن الشريعة"(٢).

وقد جمع الله عليه بجهاده من كان من الحكام متردداً متخوفاً، فهذا المعتمد بن عباد(٣) صاحب إشبيلية يدعوه للجهاد في

---

(١) "تاريخ الإسلام" حوادث سنة ٥٠٠.

(٢) "جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى": ١٨٨ نقلاً عن "أعمال الأعلام" لابن الخطيب: ٢٤٥.

(٣) هو محمد بن عباد بن محمد اللخمي، أبو القاسم المعتمد على الله ملك إشبيلية في عصر ملوك الطوائف. ولد في باجة -في البرتغال اليوم- سنة ٤٣١هـ. وكان فارساً=

الأندلس وإنقاذه من براثن المتربصين به، وقد خوفه جماعة من الناس من مغبة دعوة ابن تاشفين إلى الأندلس حتى لا يطمع بها فقال قولته المأثورة: "رَعْي الجمال خير من رعيِ الخنازير" أي أن ابن تاشفين لو حبسه على رعي الجمال لكان خيراً له من أن يحبسه ألفونسو على رعي الخنازير.

وهذا عبدالله بن بُلُقِّين أمير غرناطة رحمه الله[1] يوضح ذلك أحسن توضيح في كتاب له باسم "التبيان" قال فيه:

"وأَمَرْنا بضرب الطبل وما يُستعد به للفرح عند مخاطبته لنا بدخول الجزيرة، وظننا أن إقباله إلى الأندلس مِنّة من الله عَظُمت لدينا لاسيما خاصة من أجل القرابة وللذي شاع من خيرهم وإقبالهم على طلب الآخرة وحكمهم بالحق، فنعمل أنفسنا وأموالنا في الجهاد معه كل عام، فمن عاش منا كان عزيزاً تحت ستر وحماية، ومن مات كان شهيداً... ولقينا أمير المسلمين -أي يوسف بن تاشفين- في طريقه إلى بَطَلْيُوس بحريشة، ورأينا من إكرامه لنا وتَحَفِّيه بنا ما زادنا ذلك فيه رغبة، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا

....

=شاعراً مجيداً لكنه كان مترفاً ميالاً إلى اللذات، ولذلك أوقع به ابن تاشفين وسجنه في أغمات بجوار مراكش حتى مات سنة ٤٨٨ رحمه الله تعالى.

(١) هو آخر ملوك بني زيري في غرناطة، عزله عنها المرابطون، وتوفي في سجن أَغْمات سنة ٤٨٣، رحمه الله تعالى.

فضلاً على أمولنا، ولقينا المتوكل بن الأفطس[١] محتفلاً بعساكره كلُّ يرغب في الجهاد قد أعمل جهده، ووطّن على الموت نفسه".

ومن هذه النصوص وأشباهها نرى أن الجهاد الذي ابتدأه ابن تاشفين في الأندلس قد استحوذ به على عدد من أمراء الطوائف الذين أيدوه ورغبوا في الجهاد معه.

ويكفي يوسف بن تاشفين فخراً أنه هو الذي ابتدأ الجهاد بالأندلس بعد انقطاع دام ٧٩ سنة من زمن انقضاء دولة المنصور بن أبي عامر[٢] حتى دخل إليها لمعركة الزلاقة رحمه الله تعالى.[٣]

ولا شك أن الجهاد في سبيل الله تعالى ذروة سنام الإسلام كما أخبر النبي e وأن ذل المسلمين بترك الجهاد، وعزهم بإقامة

....

(١) هو أمير بَطَلْيوس، واسمه عمر بن محمد بن الأفطس، وقتل سنة ٤٨٧، وكان له مكارم، إلا أن هناته كثيرة وصعبة غفر الله له.

(٢) المنصور بن أبي عامر: محمد بن عبدالله بن عامر المعافري القحطاني، أبو عامر، المعروف بالمنصور بن أبي عامر، أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، وأحد الشجعان الدهاة. ولد سنة ٣٢٦هـ وقدم قرطبة شاباً طالباً للعلم، فبرع وتقلب في مناصب الدولة من شرطة وقضاء وغيرها، ولما مات المستنصر الأموي كان المؤيد صغيراً، وخيف من الاضطرابات، فضمن ابن أبي عامر لأم المؤيد سكون البلاد واستقرار الملك لابنها، وقام بشؤون البلاد، وغزا وفتح، ودامت له الإمرة ٢٦ سنة ، غزا فيها الإفرنج ٥٦ غزوة، وكان المؤيد معه صورة بلا معنى. توفي في إحدى غزواته سنة ٣٩٢هـ، رحمه الله تعالى. انظر: "الأعلام": ٦/٣٢٦.

(٣) "الحلل الموشية": ٨٢.

شعائره، وهذا هو الذي أكسب دولة المرابطين وأميرها يوسف بن تاشفين القوة والمنعة، وجعل لها الرهبة والهيبة في قلوب العدو، ومكنها من تحقيق مكاسب لا تحصى للمسلمين في المغرب والأندلس، وقد أثنى عليه العلماء ثناء عطراً بسبب قيامه بأعباء الجهاد، وتصديه لنجدة البلاد والعباد؛ فهذا ابن بَسَّام[1] يقول في "الذخيرة":

"جزى الله أمير المسلمين، وناصر الدين أبا يعقوب يوسف ابن تاشفين أفضل جزاء المحسنين بما بَلّ مِن رماق[2]، ونَفّس مِن خِناق، ووصل هذه الجزيرة مِن حَبْل[3]، وتجشَم إلى تلبية دعائها واستنقاذ ما بها من حَزَن[4] وسهل، حتى ثَلّ[5] عروش المشركين، وظهر أمر الله وهم كارهون، والحمد لله رب العالمين"[6].

وقد قال الدكتور حسين مؤنس -رحمه الله تعالى- كلاماً مهماً أختم به هذا المطلب:

(١) أبو الحسن علي بن محمد بن بسام الشنتريني التغلبي، من أهل شنترين (في البرتغال اليوم) وولد بها سنة ٤٥٠، وهو أديب عالم باللغة، وشاعر. خرج من شنترين لما احتلها نصارى الشمال بقيادة ألفونسو الأول واستقر في اشبيلية، وكتب كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" الذي يعد من أهم المراجع الأدبية والعلمية في الأندلس. توفي في اشبيلية سنة ٥٤٢ رحمه الله تعالى.

(٢)الرِماق: القليل الضيق من العيش: "تاج العروس": رمق.

(٣) المراد به هنا القوة.

(٤) الحَزَن الشديد الصعب.

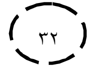
(٥) أي هَدّ.

(٦) "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، نقلاً عن "التاريخ الأندلسي": ٣٣٥.

"كان على المرابطين أن يواصلوا جهاداً دينياً يتطلب سيلاً لا ينقطع من المقاتلين وأموالاً لا تُحصى، ولو أن رؤساء الأندلس وقفوا إلى جانب يوسف بن تاشفين وأيدوه وشاركوا في الجهاد لتثبتت جبهة الإسلام هناك بصورة نهائية، ولكن بينما كان شعب الأندلس يتعطش للجهاد ويبدي كامل الاستعداد لمواجهة العدو كان رؤساء بلاد الأندلس منصرفين إلى إقامة الصعاب والعقبات في وجه إخوانهم الذين أقبلوا لإنقاذ بلادهم، وبدلاً من السير إلى جانبهم نجد الكثيرين من أهل الفكر في الأندلس يسخرون من المرابطين ويترفعون عليهم لأنهم كانوا قوماً على البداوة لم يفسدهم الترف الذي أضعف أهل الأندلس وجعلهم عاجزين عن الدفاع عن بلادهم"[١]. فما أشبه الليلة بالبارحة**!!**

---

(١) "وثائق المرابطين والموحدين": ٣٦.



ثالثاً: التقشف والاخشيشان والبعد عن الترف:

إن الترف[1] داء مهلك إذا تمكن من الأفراد والأمم عاد عليها بالخسران المبين والضعفِ المورد مواردَ الهلاك، وكم رأينا مِنْ أمم مترفة سادت ثم بادت، وكم سمعنا عنْ أشخاص كانوا مِلء السمع والبصر فغزاهم الترف فجعلهم أثراً بعد عين، وذهبت أعمارهم وجهودهم أدراج الرياح.

وقد كان البطل المجاهد يوسف بن تاشفين خشنَ العيش، بعيداً عن الترف، قليل الأخذ من الدنيا، زاهداً متقشفاً، وكان

....

(١) معنى الترف:

جاء في معجم "تاج العروس": (ت ر ف):

التُّرْفة: النعمة وسعة العيش.

وكفَرِح -أي تَرِف- : تَنَعَّم.=

=وأترفته النعمة وسعة العيش: أطغته.

وقيل: أترفته: نَعَّمته، ومنه قوله تعالى: "ما أُترِفُوا" (سورة هود الآية ١١٦)؛ أي: ما نُعِّموا. وإنما سُمي المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها مترفاً؛ لأنه مطلق له، لا يمنع من تنعمه.

وجاء في "لسان العرب": (ت ر ف):

الترف: التنعم.

وصبي مُتْرَف: إذا كان مُنَعَّمَ البدن، مدللاً.

والمترف: الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش.

وجاء في "معجم مقاييس اللغة": (ت ر ف):

يقال: رجل مُترف منعم، وتَرَّفه أهله: إذا أنعموه بالطعام الطيب والشيء يُخصُّ به.

إذاً يدور معنى الترف على التنعم وسعة العيش، والتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها، وقد يؤدي كل ذلك إلى الطغيان وعدم شكر النعم.

طعامه الشعير وحليب الإبل ولحومها، ويلبس الصوف لم يلبس قط غيره.[1]

"وكان يوسف بن تاشفين مقتصداً في أموره، غير متطاول ولا مبذر... وكان قد ذهب صدر عمره في بلاده في شظف العيش"[2].

وكذلك كان قومه: "أقواماً ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ولا مخالطة الأسافل"[3].

وتصف المصادر التاريخية أولئك المرابطين -وابن تاشفين منهم بل سيدهم- بأنهم "لهم في قتالهم شدة وجَلَد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهـــزام، ولا يُحفظ لهم فرار من زحف... وأكثر قتالهم وهم راجلون على أقدامهم صفوفاً"[4]، وهذا النص دالّ على قوتهم وخشونتهم.

ولذلك -والله أعلم- غضب ابن تاشفين من المعتمد بن عَبّاد لما رأى ترفه الشديد، وتبذيره وسوء صنيعه في بلاده فقال:

"الذي يلوح من أمر هذا الرجل -يعني المعتمد- أنه مضيع لما في يده من الملك؛ لأن هذه الأموال التي تعينه على هذه

---

(١) "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": ٢/٦٠.

(٢) "وفيات الأعيان": ٧/٢٠.

(٣) "الحلل الموشية": ٨٢.

(٤) "في تاريخ المغرب والأندلس": ٢٦٩.

الأحوال[١] لابد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبداً، فأخذه بالظلم وأخرجه في هذه التَرُّهات، وهذا من أفحش الاستهتار، ومن كانت همته في هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو ... متى يَسْتَجدّ همة في حفظ بلاده وضبطها وحفظ رعيته والتوفر على مصالحها؟!!"[٢].

....

(١) أي الترف والسرف.

(٢) "وفيات الأعيان": ٧/١٢٠.

رابعاً: الشجاعة والقوة:

إن الاخشيشان والبعد عن الترف -الذي ذكرته في الفقرة السابقة- في حياة يوسف بن تاشفين قد أورثاه القوة اللازمة للجهاد، وقد دخل الأندلس مجاهداً وقد ناهز الثمانين من عمره، وهذا يدل على ما وهبه الله إياه من عافية في جسده وقوة في أعضائه، أما الشجاعة فقد كان له منها نصيب كبير، وقد ساعدته قوته وشجاعته في تجاوز المعضلات والقفز فوق الحواجز والعقبات، والثبات في الملمات.

ـــ ولما أرسل إليه الأذفونش ملك النصارى كتاباً طويلاً يتهدده فيه ويتوعده، ويهينه ويحتقره ما كان منه إلاّ أن أحضر رسالة الأذفونش وكتب على ظهرها: "الذي يكون ستراه"، وأرسله إليه، فلما قرأه الأذفونش ارتاع له، وعلم أنه بُلِيَ برجل له دهاء وعزم.[(١)]

وأرسل رسالة أخرى إلى الأذفونش بمناسبة وصوله للأندلس يدعوه فيها إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب -كما هي السنة النبوية المشرفة المطهرة- وتوعده فيها بقوله:

"بلغنا يا أذفونش أنك دعوت الله في الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر عليها البحر إلينا فقد عبرناه إليك، وقد جمع الله -تعالى- في هذه العَرَصة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك: وما دعاء الكافرين إلا في ضلال".[(٢)]

....

(١) "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": ٢/٤١.

(٢) المصدر السابق.

وهذه وتلك رسالتان تفيضان قوة وشجاعة.

وانظر إلى هذا النص المنبئ عن قوته وشجاعته، وهو نص يصف شيئاً مما جرى في معركة الزلاّقة الشهيرة:

"فلما كان صباح الجمعة الثاني عشر من رجب سنة ٤٧٩هـ زحف الفونسو بجيشه على المسلمين.

كان أمير المسلمين قد جلب مع جيشه إلى الأندلس الجمال فكانت ذات نقع، دارت المعركة حامية الوطيس، عنيفة الحركة، شديدة الضراب، ظهرت فيها براعة الجيش الإسلامي والقائدين ابن عباد وابن تاشفين، بدا فيها أمير المسلمين -أي ابن تاشفين- ليس فقط فارساً صوالاً جوالاً بل ذا مقدرة عسكرية يبتكر الخطط المناسبة أثناء المعركة، فما أن اشتدت المعركة واختلّ المعسكر الإسلامي حتى دفع ابن تاشفين إلى قلب معسكر العدو بجموعة، ثم حمل نفسه بالقوة الاحتياطية إلى المعسكر القَشتالي هاجمه بشدة، ثم اتجه صوب مؤخرته فأثخن فيه وأشعل النار، وهو على فرسه يرغّب في الاستشهاد، وقرع الطبول يدوي في الآفاق، قاتل المرابطون في صفوف متراصة ثابتة مثل بقية أجنحة المعركة"[١].

(١) "التاريخ الأندلس": ٤٠٧-٤٠٨.

خامساً: الهمة العالية:

إن الذي يُرزق همة عاليـــة إنما يُرزق شيئاً عظيماً، وليس في التاريخ مكان لساقط الهمة ضعيفها، وقد كان للبطل المجاهد يوسف بن تاشفين القدَح المُعَلّى في الهمة وقصَب السَبْق فيها، فقد أخذ نفسه بالجد والاجتهاد والقوة منذ شبابه إلى كهولته ثم شيخوخته.

ومن أكبر الأمور الدالة على همته العالية أنه جاهد الصليبيين في الأندلس وهو ابن ثمانين سنة، وهذا لم يتيسر إلا للقليل من ملوك الإسلام.

ـــ ومن دلائل همته إكمال ما بدأه القادة السابقون للمرابطين من توحيد المغرب وهم الفقيه عبدالله بن ياسين والأمير يحيى بن عمر اللمتوني وأبوبكر بن عمر اللمتوني أخوه، وهما ابنا عم يوسف بن تاشفين، وقد أكمل عملهم في سنوات طويلة، وبذل جهداً عظيماً دالاً على علو همته وتطلعه إلى عظائم الأمور، ومن كان ذا همة على هذا الوجه تَيَسّر له العسير، وسَهُل عليه الصعب، وقرب منه البعيد.

سادساً: الاهتمام بأمر المسلمين والتعاطف مع مشكلاهم:

إن المسلمين كالجسد الواحد، كما أخبر المصطفى e: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر"[١]، ومهما كان المسلمون كذلك فإن عدوهم لا يستطيع أن يهزمهم ولا يمكن له أن يقهرهم، وقد كان من مشكلات المسلمين في زمن ضعفهم أن عدوهم ينفرد بهم الواحد إثر الآخر، والجماعة تِلْوَ الجماعة ولا يلتفت بعضهم إلى مشكلات بعض، ولا يكاد بعضهم ينصر بعضاً إلا في أحيان قليلة.

ولقد رأى يوسف بن تاشفين ما حلّ بالأندلس من داهية دهياء، ومن انقضاض الأعداء عليها انقضاض الذئب على فريسته، وابتلاع مدنها الواحدة تلو الأخرى فلم يسعه الرضا بذلك ولا السكوت عما هنالك، خاصة أن الأندلسيين استغاثوا به حكاماً وعلماء ومشايخ لينجدهم على عدوهم الصليبي الذي أراد أخذ البلاد والتنكيل بالعباد، وللمقّري نص جميل في هذا فقد قال:

"وكان يوسف بن تاشفين لا تزال تَفِد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين، مجهشين بالبكاء، ناشدين بالله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته، ووزراء دولته، فيسمع إليهم، ويصغي لقولهم، وترق نفسه لهم"[٢].

....

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

(٢) "نفح الطيب": ١٣٩/٦.

وقد أورد صاحب "الحُلل الموشيّة في ذكر الأخبار المراكُشية" أنه "في سنة أربع وسبعين وأربعمائة وفد عليه -أي على يوسف بن تاشفين- جماعة من الأندلس شكوا إليه ما حَلّ بهم من أعدائهم فوعدهم بمرادهم وأعانهم"[١].

ولما جاء إلى الأندلس كان همه أن يجمع كلمة المسلمين، وأمرهم بالاجتماع، وهذا أحد أمرائهم يخبر بوصية ابن تاشفين -بعد انتصاره في الزلاقة وقبل عودته إلى المغرب- فيقول:

"وأمرنا بالاتفاق والائتلاف، وأن تكون الكلمة واحدة، وأن النصارى لم تفترصنا إلا للذي كان من تشتتنا واستعانة البعض بهم على البعض، فأجابه الكل أن وصيته مقبولة، وأن ظهوره[٢] مما يجمع الكل على الطاعة"[٣].

وقد تَوّج اهتمامه بأمر المسلمين في الأندلس بجهاده العظيم لأعدائها، وانتصاره عليهم في معارك منها بل على رأسها معركة الزلاقة الجليلة العظيمة سنة ١٠٨٧/٤٧٩.

....

(١) نقلاً عن "التاريخ الأندلسي": ٣٩٨.

(٢) أي انتصاره.

(٣) "التاريخ الأندلسي": ٤٢١ نقلاً عن "التبيان" للأمير عبدالله بن بلقين بن باديس.

سابعاً: تقريب العلماء:

إن من سعادة الحاكم أن يقرب العلماء منه، وأن يعظمهم ويوقرهم، وأن يأخذ بنصائحهم، وأن يعمل بإشارتهم، ففي هذا نجاته في الآخرة إن شاء الله تعالى، وتخلصه من شيء من المسؤولية الثقيلة الملقاة على عاتقه.

والعلماء هم أولو الأمر مع الحكام كما قال بذلك كثير من علماء المسلمين.[1]

وما تدهورت أمور العالم الإسلامي إلا حين حصل الانقصام النَكِدُ بين العلماء والحكماء، وضعفت العلاقة بينهم بل هُمِّش العلماء تهميشاً واضحاً.

وقد كان البطل المجاهد يوسف بن تاشفين مقرباً للعلماء، قال صاحب "الحلل الموشية":

"كان يفضل الفقهاء، ويعظم العلماء، ويصرف الأمور إليهم، ويأخذ فيها برأيهم، ويقضي على نفسه ..."[2].

---

(١) وممن قال بأن أولو الأمر هم العلماء ابن عباس وجابر رضي الله عنهما، وهو قول الحسن والضحاك ومجاهد وابن أبي نجيح، وعطاء بن السائب، وعطاء بن رباح وأبي العالية رحمهم الله تعالى، انظر "تفسير البغوي، والطبري في تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم" في سورة النساء آية ٥٩.

(٢) "الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية": ٨٢.

وقال الإمام الذهبي إنه كان "مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم".

وقال في موضع آخر:

"كان يقتدي بآراء العلماء ويعظم أهل الدين".[1]

وقال ابن الأثير:

"يحب أهل العلم والدين، ويحكمهم في بلاده، ويبالغ في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم".[2]

وقال اليسع بن حزم:

"يقلد العلماء، ويؤثر الحكماء".[3]

ومما اتبع فيه فتاوى العلماء ففاز ما أفتاه به الإمام أبوبكر الطرطوشي والإمام الغزالي وابن العربي -الوالد- بوجوب توحيد ديار الإسلام في الأندلس تحت راية المرابطين وخلع ملوك الطوائف.[4]

ـــ ولعظم خصاله عزم الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى- على الذهاب إليه، وفي هذا قال ابن خلِّكان:

---

(١) "تاريخ الإسلام": حوادث سنة ٥٠٠.

(٢) "الكامل": حوادث سنة ٥٠٠.

(٣) "تاريخ الإسلام": حوادث سنة ٥٠٠.

(٤) "فقه التمكين عند دولة المرابطين": ١٤٨ وما بعدها.

"بلغني أن الإمام حُجةَ الإسلام أبا حامد الغزالي تغمده الله تعالى برحمته لمّا سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه، فوصل إلى الاسكندرية وشرع في تجهـــيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته فرجع عن ذلك العزم"(١).

ومن تعظيمه للعلماء أنه أرسل رسالة إلى قاضي الجماعة أبي عبدالله بن حمدين (ت٥٠٨) المقرب من المرابطين يقول له فيها:

"وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يُسلّموا لك في كل حق تُمضيه، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه"(٢).

ــ ومن مظاهر طاعته للعلماء تلك الحادثة الجليلة التي حدثت عندما أرسل إلى قاضي المِرْية أبي عبدالله محمد بن يحيى ابن البراء يأمره بفرض مال على سكان المرية للمعاونة في جهاد النصارى، فكتب إليه القاضي يخبره أنه لا يجوز له هذا الصنيع، فأجابه ابن تاشفين أن الفقهاء وافقوه وأن عمر بن الخطاب t فرضها على المسلمين، فراجعه القاضي برسالة جليلة قال له فيها:

"... قد بلغني ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة(٣) وتأخري عن ذلك، وأنّ أبا الوليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء

(١) "وفيات الأعيان": ١٢٥/٧.

(٢) "جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى": ٦٤ نقلاً عن "المعجب": ٢٢٧.

(٣) أي طلب المال للجهاد.

بالعُدوة[1] والأندلس أفتوه بأن عمر بن الخطاب t اقتضاها، فالقضاة والفقهاء إلى النار دون زبانية!! فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحبَ رسول الله e ووزيره، وضجيعه في قبره، ولا يُشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله e ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره، ولا ممن لا يُشك في عدله، فإن كان القضاة والفقهاء أنـــزلوك منـــزلته في العدل فالله -تعالى- سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك.

وما اقتضاها عمر t حتى دخل مسجد رسول الله e وحضر من كان معه من الصحابة y وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم، فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته، والله تعالى على ذلك كله، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته".

فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله، ولم يُعِد عليه في ذلك قولاً، والأعمال بالنيات.[2]

أقول:

....

(١) أي المغرب.

(٢) "الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى": ٢/٥٩.

وبهذا يُعْظم العلماء ويعلو قدرهم، وتعلو مكانة الحاكم الذي يسمع لكلامهم ويطيعهم، وقد كان البطل المجاهد يوسف بن تاشفين من هؤلاء الحكام الذين سُعدوا بمثل هذا العالم، فما أحوجنا لعالم مثله.

وهناك حادثة أخرى تدل على ركون ابن تاشفين -رحمه الله تعالى- إلى الفقهاء واستشارته لهم في الأمور المهمة، فقد أراد الجواز إلى الأندلس للجهاد، فطلب من صاحب سَبْتة أن يعبر من بلاده فرفض فاشتكاه إلى الفقهاء فأفتوا بحل قتاله، وهذا ابن الأبّار[١] -رحمه الله تعالى- يوضح المسألة فيقول:

"وازدلف خلال ذلك إلى سَبْتة أمير المغرب حينئذ أبو يعقوب يوسف بن تاشفين اللَمْتُوني حِسْبةً ورغبةً في الجهاد، وقد دانت له بلاد العُدوة، وسأل من سَقوت بن محمد صاحب سبتة أن يُبيح له فُرَض الإجازة إلى الأندلس فأبى وتمنع من ذلك، فأفتى الفقهاء بقتاله لصده عن سبيل الله، فقتل هو وابنه في خبر طويل، وفتح الله على ابن تاشفين سَبْتة، وأمكنه الحصول على مراده بذلك"[٢].

(١) أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القُضاعي البلنسي، مؤرخ، ولد سنة ٥٩٥ في بلنسية، وبرع في البلاغة والنظم، وكان أحد المحدثين والقراء وكان له كتب جليلة. قتله صاحب تونس ظلماً وعمره ثلاث وستون سنة رحمه الله تعالى، وكان ذلك سنة ٦٥٨.

(٢) نقلاً عن "التاريخ الأندلسي": ٣٩٦.

وقد جاء في نص آخر أن ابن تاشفين "آذن صاحب سبتة بقصده الغزو وتشوقه إلى نصرة أهل الإسلام بالأندلس، وسأله أن يخلي الجيوش تجوز في المجاز فتعذر عليه فشكاه يوسف إلى الفقهاء فأفتوا أجمعين بما لا يسر صاحب سبتة"(١).

وهذا كله من يُمْن اتباعه للفقهاء وإصغائه لمشورتهم.

ومن ذلك أن المعتمد ابن عباد استنجده لما حاصره الفونش وضيق عليه، فاستشار يوسف ابن تاشفين الفقهاء فقالوا له:

إنه لمن الواجب على كل مسلم إغاثة أخيه المسلم، ولا يحِل لنا أن يكونٍ هذا الرجل جارنا، وليس بيننا وبينه إلا ساقية ماء، ونتركه طُعمةً للعدو، فعزم يوسف حينئذٍ على نصرة الأندلسيين.

وقد اختار المرابطون المذهب المالكي وعمموه في بلاد المغرب لكن بدونٍ حَجْر على العلماء ولا إجبار لهم، كما هو معلوم من تاريخهم عموماً وتاريخ يوسف بن تاشفين خصوصاً.

ولما كان ابن تاشفين على هذا الوجه من احترام العلماء وتعظيمهم جاءه العلماء من الأندلس وانقطع إليه "من الجزيرة من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم"(٢).

....

(١) المصدر السابق: ٣٩٢.

(٢) "جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى": ١٢٥ نقلاً عن "الذخيرة": ٢٦١/١.

ثامناً: طول العمر:

قد رزق البطل المجاهد يوسف بن تاشفين عمراً طويلاً مديداً فقد عاش قريباً من مائة سنة -على خلافٍ في مقدار سنة لكن الأقوال اتفقت على أنه قد عُمِّر طويلاً-، وهذا قد مكنه من أعمال كثيرة جليلة، وساعده على تحقيق هدف عظيم وهو جمع الأندلس والمغرب الأوسط والأقصى تحت راية دولة عظيمة فتية.

وهنا يبرز سؤال مهم:

هل يشترط للعمل النافع والأثر الجليل أن يكون صاحبه ذا عمر طويل ممتد؟ هذا سؤال مهم والإجابة عليه أن هذا غالباً شرط في إيجاد الأثر؛ أي أن يكون صاحب الأثر قد عاش مدة من الزمان مناسبة يرعى فيها عمله، ويسقي فيها بذرته، ويتعهدها حتى تبرز وتشتد وتقوى وتستوي على سوقها، هذا في الغالب شرط، وهذا مشاهد مُسْتَقْرَأ من أحوال الناس وتاريخ المصلحين والدعاة والعاملين.

ولئن قيل لي: كم تقدر الحد الأدنى من العمر المناسب للعطاء والبذل المترتب عليهما الأثر الجليل فأقول: لابدّ أن يجاوز الأربعين قطعاً، فمن مات قبل الأربعين من عمره قَلّ أن يترك عملاً ذا أثر كبير وجليل، والحد المناسب هو أن يجتاز الخمسين، ولو عُمِّر إلى الستين أو السبعين لظهر لعمله -إن كان متميزاً- آثار جليلة، أما من يعيشون إلى المائة أو قريب منها فهؤلاء أهلٌ لترك الآثار العظيمة إن حسن عملهم وجدوا واجتهدوا، وهذا عين الذي وقع للبطل المجاهد يوسف بن تاشفين.

لكن هناك استثناءات لكل ما سبق، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده، سبحانه لا يُسأل عما يفعل جَلّ جلاله، فمن الاستثناءات الواضحة لمن مات قبل الأربعين وترك أثراً جليلاً:

١. سيدنا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام، فقد رفعه الله إليه في الثالثة والثلاثين من عمره المبارك[١] وترك أثراً ملأ الدنيا، وهو من أولي العزم من الرسل وأصغرهم صلوات ربي وسلامه عليهم.

٢. عمر بن عبدالعزيز t وقد توفي وهو في الأربعين.

٣. سيبويه: عملاق النحو العربي، وتارك الأثر الجليل "الكتاب" الذي هو بمثابة دستور للنحاة واستفاد منه ملايين العلماء وطلبة العلم، مات ولم يبلغ الأربعين بل كان عمره يناهز الثالثة والثلاثين فقط رحمه الله تعالى، ويُعد إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو[٢].

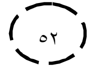
أما من ترك أثراً جليلاً ومات وهو في الأربعينات من عمره فيحضرني مثالان عظيمان:

١. الإمام النووي، وقد مات وهو في الرابعة والأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره المبارك.

(١) انظر: الآثار في سنه الذي رفع فيه في "البداية والنهاية": ٢/٩٥.

(٢) انظر: "الأعلام": ٥/٨١.

٢. الإمام حسن البنا رحمه الله تعالى، وقد مات وهو في الثالثة والأربعين من عمره المبارك، وقد غير الدنيا، وشغل الناس، وترك آثاراً جليلة في الأرض: رجالاً ومؤسسات وكتباً ومشروعات تملأ جوانب الأرض، وهذا فضل الله تعالى يؤتيه من شاء من عباده.



خاتمـــة

قد كان هذا البحث محاولة لكشف ما كان عليه المجاهد الإمام يوسف بن تاشفين من خلال وخصائص وشمائل، ولكني أظن -والله تعالى أعلم- أن أخباره التي بين أيدينا من مصادر ومراجع إنما هي شذرات قليلة، ولعل هنالك من المخطوطات التي حوت دررا مكنونة في جوانب من ترجمته ما زالت حبيسة الخزائن أو مفقودة باللغة العربية أو البربرية، والله أعلم.

والمرابطون لما كانوا قوماً صحراويين يغلب عليهم البداوة والتقشف فقد ضعفت عنايتهم بتتبع تراجم علمائهم وأئمتهم وحكامهم وعظمائهم، وإلا فأين الترجمة الموسعة للمجاهد العظيم عبدالله بن ياسين، وللأميرين الكبرين يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر ابن عمر؟! فلا يستغرب -إذن- أن تكون ترجمة يوسف بن تاشفين شذرات مبثوثة في بعض كتب التراجم لا يملك الباحث معها إلا أن يتحسر على ما فاته بل ما فات الأمة من ترجمة ذلك الغضنفر الهمام.

وقد ساهم في تشويه صورة يوسف بن تاشفين ما جرى على يديه من نكبة ملوك الطوائف، وقد كان هذا أمراً جلب عليه قالة السوءِ، لكن لم يكن له من بدٍ أن يصنع هذا، وقد قال الأستاذ عبدالله كَنون موضحاً ما جرى:

وكما رأينا فإن يوسف قد بذل مجهوداً عظيماً في استصلاح أحوال الأندلس، وجهاد العدو المغير على ممالكها استجابة لدعوة

أهلها من ملوك وأمراء، وخاصة وعامة، وكان عمله في إصلاح ذات البَيْن، ما بين القادة والزعماء أكثرٍ من عمله في أي ميدان آخر، ولكن النـــزاع لم يزل مستشرياً بينهم، والخصومة على أشدها، واللجوء إلى العدو احتماءً به وانتصاراً على المنافس شِنشِنة لم يقلِعوا عنها، حتى بعد نجدة يوسف لهم وهزيمة هذا العدو في موقعة الزلاقة، بل إنهم لما استوحشوا من يوسف، واستشعروا غضبه عليهم، وخافوا من عقابه وانتقامه، لم يترددوا أن يضعوا يدهم في يد العدو، ويستظهروا به عليه، وعادت هيفٌ إلى أديانها، وأصبحت سيطرة العدو على الأندلس كما كان يتمنى، قاب قوسين أو أدنى.

ففي مثل هذا الوضع لم يكن هناك وسيلة للإنقاذ، ولا سبيل إلى الاحتفاظ ببلاد الأندلس للعرب والمسلمين، إلا ما قام به يوسف من استخلاصها من يد هؤلاء الزعماء والقادة الذين لم يكونوا يقدّرون مسؤوليتهم، وفي كل يوم يستعجلون النهاية المحتومة لوجودهم بسبب فرقتهم وتخاذلهم، وعلى أحسن الاحتمالات ومع عدم إساءة الظن بهم، فإن ما كان يمليه الموقف لاستمرار السيادة الإسلامية على هذه البلاد، وتفادي وقوعها العاجل في يد العدو، هو ما فعله يوسف، وتدارك به الأمر، قبل حصوله الكارثة.

وما أشبه ما كانت عليه الحال في الأندلس وقتئذٍ، بما عليه حال البلاد العربية اليوم من التقسيم والخلاف والتبعية للأجنبي، وتبديد طاقاتها في المعارك الداخلية، والعدو جاثم على صدرها يسومها الذل والهوان، ويقتطع كل يوم من أرضها ما يوسع به الإقليم الخاضع لنفوذه، الذي اغتصبه من غفلتها وسوء تصرف

حكامها، فهي أحوج ما تكون إلى قائد عصاميّ مثل يوسف يرأب صدعها ويلمّ شملها ويطهر أرضها من رجس العدوّ الدخيل...

فمن يعترض على تدخل يوسف في الأندلس وتوحيده لأقاليمها الموزعة بين ملوك الطوائف، الخاضعين لنفوذ ألفونس، المؤتمرين بأمره، هو كمن يعترض اليوم على من يعمل لوحدة العرب وجمع كلمتهم، لطرد الصهاينة المعتدين. انتهى كلام الأستاذ عبدالله كَنون.[١]

ـ ولعل مجيء الموحدين بعد المرابطين -وقد كانوا لهم أعداء- ساهم في طمس وتشويه سيرة المرابطين، وقائدهم البطل يوسف بن تاشفين، وقد ساهم كاتب الموحدين عبدالواحد بن علي المراكشي في تشويه صورة ابن تاشفين في كتابه "المعجب في تلخيص أخبار المغرب"، ومنه نقل المستشرقون الحاقدون على دولة المرابطين.

ثم إن هناك مجموعة من المستشرقين دأبت على تشويه سيرة المرابطين وذلك لنصرتهم الإسلام في الأندلس فحقد عليهم أولئك، ومنهم الهولندي راينهارت دوزي، والإسباني غرسية غومس الذي كتب كتاباً سماه "أفول شمس الفكر في العصر المرابطي في الأندلس"[٢] ومنهم كذلك مننذ بيدال في كتابه "إسبانيا في عصر السيد" فقد ألصق بالمرابطين كل نقيصة.

---

(١) "ذكريات مشاهير رجال المغرب": ١٤٦٤-١٤٦٥ .
(٢) "وثائق المرابطين والموحدين": ٢٢٤.

ولا أجد خاتمة أحسن -في هذا المقام- من قول الله تعالى العظيم: M نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ´ µ ¶ L[1].

هذا والله أعلم وأحكم، وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين والحمد لله رب العالمين.

(١) سورة آل عمران: آية ١٤٠.

المصادر والمراجع

- **"الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى"**: أبو العباس الناصري= أحمد بن خالد (ت١٣١٥هـ/١٨٩٧م).

تحقيق جعفر الناصري، ومحمد الناصري. نشر دار الكتاب. الدار البيضاء. المغرب. سنة ١٤١٨/١٩٩٧.

- **"تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام"** الحافظ الذهبي = محمد بن أحمد (ت٧٤٨).

تحقيق د.عمر عبدالسلام تدمري. نشر دار الكتاب العربي. الطبعة الأولى سنة ١٤١٥/١٩٩٤.

- **"التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة"**: د.عبدالرحمن الحجي.

نشر دار الاعتصام. الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣.

- **"جهود علماء الأندلس في الصراع مع النصارى خلال عَصْرَي المرابطين والموحدين"**: د.محمد أباالخيل.

نشر دار أصداء المجتمع. السعودية. القصيم. الطبعة الأولى سنة ١٤١٩/١٩٩٨.

- **"الحلل الموشِية في ذكر الأخبار المرّاكُشيّة"**: المؤلف مجهول من أهل القرن الثامن الهجري.

تحقيق د.سهيل زكار والأستاذ عبدالقادر زمامة. نشر دار الرشاد الحديثة. الدار البيضاء. المغرب. الطعبة الأولى سنة ١٣٩٩/١٩٧٩.

ــ "ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة": الأستاذ عبدالله كَنون، باعتناء الدكتور محمد بن عزوز.

نشر دار ابن حزم ومركز التراث الثقافي المغربي. الطبعة الأولى. سنة ١٤٣٠.

- **"فقه التمكين عند دولة المرابطين"**: د.علي الصلابي.

نشر دار البيارق. عمان.

- **"في تاريخ المغرب والأندلس"**: د.أحمد مختار العبادي.

نشر دار النهضة العربية. بيروت. سنة ١٣٩٨/١٩٧٨.

- **"الكامل" ابن الأثير الجوزي (ت ٦٢٠).**

نشر دار الكتاب العربي. بيروت. الطبعة السادسة.

- **"وثائق المرابطين والموحدين"**: عبدالواحد المركشي.

تحقيق د.حسين مؤنس.

نشر مكتبة الثقافة الدينية. مصر الطبعة الأولى سنة ١٩٩٧.

- **"وفيات الأعيان"**: شمس الدين ابن خَلّكان = أحمد بن محمد (ت٦٨١).

تحقيق د.إحسان عباس. نشر دار الثقافة. بيروت.

فهرست الموضوعات